آثار العمران في انطاكية

اطلعت في المقتطف على مقالة بقلم المستر هوارد كروسبي بطلب بحث فيها بحثاً مستفيضاً في صحراء سوريا او بادية الشام وقد تطرق الى ذكر الطرق والجسور الرومانية في سوريا فألمّ باطراف هذا الموضوع الماماً يكاد يكون تاماً لولا انهُ اغضى عن ذكر بعض الآثار المهمة التي يستشهد بها على المدنية السورية الرومانية القديمة وهي آثار مدينة انطاكية عاصمة الرومان في الشرق بعد القسطنطينية . فان هذه المدينة حافلة بالآثار والخرائب التي طالما استشهد بها الباحثون والسائحون فكانت لهم علماً يهتدون بهِ الى ابواب الحقائق وموالج التاريخ . ولهذا رأيت ان اكتب شيئاً عن آثار هذه المدينة القديمة التي ظلت اكثر من ٦٠٠ سنة حقيقة باللقب الذي لقبها بهِ (بلينوس) وهو ملكة الشرق

(١) الجسر الروماني

الجسر الروماني في هذه المدينة واقع في وسطها على نهر العاصي الذي يمر بانطاكية منحدراً من سهول حماة بعد ان يضم اليهِ النهر الاسود ونهر يقرا ونهر عفرين ونهيراً يسمى البراك ينحدر من نواحي الجبل الاعلى . وهذا الجسر هو اكبر الجسور الرومانية الباقية حتى الآن في سوريا وهو ذو ست قناطر مبنية بالحجر الابيض الضخم . وحولهُ من الجانبين سور يبلغ علوهُ ثلاثة امتار . ومن المعلوم ان هذه المدينة خربت بالزلازل اكثر من عشرين مرة وبالرغم من تواتر هذه الزلازل واضرارها بابنية المدينة فان هذا الجسر لا يزال قائماً لا يؤثر فيهِ جنون الطبيعة مهما بلغ حده . ويبلغ طولهُ نحو ٢٠٠ متر وعرضهُ نحو ٢٠ متراً . وهو جميل الشكل باذخ البنيان متين الصنع

(٢) القصور والهياكل الرومانية

ان من يزور هذه المدينة ويتعهد آثار الخرائب العظيمة في ظاهرها وفي سفح جبل الكام المحيط بها تأخذهُ الدهشة لما يشاهدهُ من الآثار الباقية فيها من العصر الروماني القديم . ففي سفح جبل الكام وعلى قمة رابية من روابي المدينة يشاهد الناظر آثار قصر فخم لا تزال اعمدته قائمة تناطح السحاب وهي تظهر للعيان

كانها صحائف من البلور غاية في الاتقان . ويقول المؤرخون ان هذا القصر كان مقر الامبراطور ثيودوسيوس الذي كان كثير التنعم والرفاهية والولع بفرض الضرائب الجديدة على الشعب كلما فرغت خزائنهُ من المال لكثرة الاعياد التي كان يقيمها لنفسهِ كما هو معلوم في التاريخ

ولهذا القصر مداخل عديدة متسعة مزخرفة بنقوش تأخذ بمجامع القلوب . وفي داخلهِ اجران كبيرة يبلغ قطر الواحد منها نحو ثمانية امتار ولعلها كانت تستعمل للاستحمام . وارضية هذا القصر كلها من الرخام الابيض والاسود اذ لا تزال معالمها بادية . وهنالك تماثيل على اشكال لولبية منقوشة نقشاً بديعاً وعلى جانبيها سور تعلوهُ البراميك بشكل يلفت الانظار . وبالاختصار فان هذا القصر كان ولا يزال موضع اعجاب السياح الذين يتقاطرون الى هذه المدينة كل سنة واكثرهم من الالمان المولعين بدرس الآثار القديمة

واذكر ان احد هؤلاء السياح كلفني مرة الصعود معهُ الى الجبل المشرف على المدينة وهو جبل حبيب النجار فاكنا نمشي خطوة الا ويقف ذلك السائح منظر من مناظر الخرائب الكثيرة في ذلك الجبل . وكان من حين الى آخر يقول لي متسائلاً اعندكم كثير من هذه الحجارة الضخمة الصقيلة ؟ أتعني حكومتكم بهذه الآثار النفيسة التي تشهد لمن سكنوا هذه البلاد قديماً بالتفوق والنبوغ في فن البناء ؟ فكنت اجيبهُ : كلا . واذا صعد السائح قليلاً في هذا الجبل رأى بقايا تماثيل وهياكل كثيرة لا يحصرها عد ولا حساب واكثرها قائم على الروابي وفي جوف المغائر المنحوتة في قلب الصخور . واكبر تلك المغائر مغارة يبلغ طولها نحو ١٠٠ متر وعرضها نحو اربعة امتار والماء يجري في داخلها ليل نهار وهي متينة الصنع عظيمة الاتقان . وفي داخلها مقاعد حجرية بعضها مستدير وبعضها مربع على شكل هندسي بديع . وفي آخرها مقعد مستطيل من الحجر الابيض الضخم وفي اسفلهِ نقوش وصور اسود وثعالب

وفي شرق المدينة وعلى رابية من روابيها هيكل قديم الصنع عالي البنيان تجري المياه المعدنية الحارة من بين جدرانهِ فيقصدهُ السكان للاستحمام والاستشفاء من الامراض . وقد اقام الآباء الكبوشيون كنيسة هناك باسم القديسين بطرس وبولس . وفي هذا الهيكل اعمدة جميلة وتماثيل مصنوعة باتقان تام . ومن

الغريب ان ابواب هذا الهيكل مقفلة ابداً وعلى من يريد زيارتهُ والتفرج عليهِ ان يستأذن رئيس دير الكبوشيين. وبعض الهيا كل القديمة لا ابواب لها يدخلها من يشاء ويقال ان القديس دمتريوس دفن في بعضها ولذلك ترى المسيحيين الارثوذكس يزورون هذا الهيكل في عيد ذلك القديس ويأخذون معهم الطعام والشراب فيأكلون هناك ويشربون ويذبحون الذبائح وينذرون النذور

(٣) التماثيل والقبور الرخامية

لعل اشهر التماثيل التي عثر عليها في هذه المدينة تمثال الامبراطورة افدوكيا زوجة الامبراطور ثيودوسيوس. وهذا التمثال من اغرب التماثيل واعظمها فهو آية في الابداع يدل على عظمة الفن الروماني اليوناني الخالد. وقد روى المؤرخون عن هذا التمثال قصصاً كثيرة تدل على السبب الذي دعا الانطاكيين لنصبهِ للامبراطورة افدوكيا واشهرها ان الامبراطورة كانت مولعة بالشعر وقد زارت انطاكية وكان ابوها من معلمي المعاني والبيان فيها فلما وصلت الى المدينة راقتها مناظرها الطبيعية الجميلة وتذكرت ماضيها فجلست على سرير من الذهب مرصع بالجواهر والقت على الشعب خطاباً موضوعهُ مديح انطاكية واشارت في ختامهِ الى ان اصل المدينة يوناني لان الذي اختطها هو احد جنرالية الاسكندر وانها هي يونانية الاصل ولذلك تحبها كل المحبة. ثم انشدت شعراً من الياذة هوميروس موافقاً للمقام فتحمس السامعون كثيراً ودعوا لها بالنصر ونصبوا لها تمثالين فشكرت المدينة بعطاياها

ويرى زائر انطاكية اليوم هذا التمثال في دار الحكومة وهو يمثل الامبراطورة باسطة يدها كأنها تشير الى عظمة الفن الذي اشتهر بهِ سكان سوريا القدماء

وفي ظاهر المدينة كثير من القبور الرخامية الجميلة الصنع والاتقان بعضها بشكل مربع وبعضها بشكل مستطيل. فعلى مسير ساعتين من المدينة غابة مجاورة لها كانت تدعى قديماً دفنه ومعناها غار كان فيها هيكل عظيم لا يلوح زالت معالمهُ واندرست آثارهُ الا القليل منها. وهناك قبر لعلهُ اشهر القبور اذ يقال انهُ قبر الامبراطور انتيوخوس الذي سميت المدينة باسمهِ. وقد اعتنت الحكومة العثمانية بهذا القبر كثيراً لانهُ من الآثار التي تستحق كل عناية واهتمام. واذكر

انها بحثت ونقبت كثيراً سنة ١٩٠٥ فاستخرجت من جوف الارض بعض الاغطية التي كانت تغطى بها القبور واتت بها الى دار الحكومة واقامتها هناك محتفظة بها كاتم الآثار وابدع النفائس كما انها احتفظت بكثير من الاحجار المنقوشة نقشاً بديعاً يدل على مهارة فائقة الوصف

والزائر لدار الحكومة هناك اليوم يراها ملأى بتلك التماثيل والآثار واكثرها كما ذكرت من اغطية القبور والاضرحة وعليها صور كثيرة اغلبها يمثل بعض القواد الرومان بملابسهم الرسمية وبعضهم يمتطون الجياد . وعلى البعض الآخر صور نساء يحملن اطفالهن على ايديهن . وصور اسود وثعالب .. الخ

(٤) السور الروماني وابواب المدينة

ويحيط بالمدينة سور عظيم يبلغ ارتفاعهُ اكثر من خمسة امتار وهو يبتدىء من قمة الجبل المشرف على المدينة منحدراً الى اسفل حتى يحيط بها وهو مبني بالحجارة الضخمة ويبلغ سمكهُ نحو متر ونصف متر ولهُ منافذ صغيرة يخيل للناظر اليها انها كانت تستعمل لاطلاق البنادق والمدافع منها . وهذا السور قديم جداً يرجع تاريخه الى اواسط القرن السادس للميلاد فقد اشار اليهِ المؤرخون وقالوا ان الرومان احتموا باسوار المدينة عند ما داهمها جيش كسرى ملك فارس وكانت نتيجة ذلك دخول الجيوش الفارسية مدينة انطاكية بعد حصار دام ثمانية ايام ثم تصالحت الدولتان واتفقتا على ان يؤدي القيصر الى ملك فارس مبلغاً معيناً من المال . وللمدينة ابواب اثرية قديمة جداً لا يزال بعضها قائماً الى الآن منها باب يدعى باب مسلم ويرجح ان تسميتهُ بهذا الاسم نسبة الى مسلم بن عبد الله جد عبد الله بن حبيب النعمان بن مسلم الانطاكي وكان قد جاءها في عهد ابي عبيدة بن الجراح الذي فتحها في ايام الخليفة عمر بن الخطاب فقتل على باب من ابوابها فهو يعرف لذلك بباب مسلم . وفي شرق المدينة باب آخر يدعى باب بولس ويروى ان بولس الرسول دخل انطاكية من هذا الباب فدعي باسمهِ واستشهد المؤرخون على ذلك بما ورد في اعمال الرسل (١ ص ١١ : ٢٢ — ٢٦) .

وعلى بعد ١٥٠ متراً من باب بولس باب آخر يدعى باب بطرس وفي

التقاليد ان بطرس الرسول سيم اسقفاً على انطاكية وكان اول اسقف لكنيستها وذلك سنة ٣٨ وفي رواية اخرى سنة ٤٤ بعد المسيح فاقام فيها مدة ٧ سنين ثم عين افوديوس خليفة لهُ وسافر الى رومية

(٥) شوارع المدينة المبلطة

اتفق المؤرخون على ان الامبراطور يوليانوس مد اهالي انطاكية بالمال على اثر زلازل كثيرة حدثت فيها وهدمت معظم ابنيتها فبنوا حمامات جميلة وقصوراً وكنيستين كبيرتين احداهما للعذراء والاخرى للقديس ميخائيل وحولوا مجرى النهر بحيث صار أوسع وباطوا اسواق المدينة تبليطاً حسناً وجعلوا ما كان منها معوجاً على استقامة واحدة لتسهيل المرور فيها وجروا المياه الى المدينة بالقنوات وبغيرها

واهم تلك الاعمال التي قام بها الانطاكيون على زمن ذلك الامبراطور تبليط شوارع المدينة فهي لا تزال حتى الآن مبلطة تبليطاً لا مثيل لهُ في كل مدن سوريا . وتبلغ مساحة البلاطة الواحدة نحو ٤ أمتار مربعة وبعضها مستطيل وكلهُ من البلاط الابيض ويبلغ سمك الواحدة منهُ نحو نصف متر واكثر وتكتسب الشوارع في الشتاء منظراً جميلاً اذ يظهر البلاط انظف من قبل ويظهر للرائي كأنهُ قطع بلورية يزيدها نور الشمس عند طلوعها منظراً رائعاً فاذا مشى الرجل في شوارع المدينة وطرقاتها في الشتاء لا يجد شيئاً من الاوحال على الاطلاق اذ تجري مياه الامطار في جميع الشوارع ضمن مجار خصوصية ثم تصب في نهر العاصي شمالي المدينة

(٦) أقنية المياه

واهم ما يستوقف الابصار اقنية المياه التي ظهرت على اثر بعض الحفر والتنقيب الذي قامت بهِ الحكومة العثمانية على عهد والي حلب جيل باشا وكان قد قدم انطاكية فاعجب ببديع آثارها فأمر بالحفر والتنقيب املاً في العثور على بعض الآثار المدفونة في جوف الارض فيما فظهرت أقنية مياه معمولة من البرابخ وممتدة على مسير ساعتين من المدينة مما دل على ان الرومان جروا الى المدينة مياه دفنه وهي مياه عذبة باردة

وقد اشتهرت دفنه (وهي غابة كان فيها هيكل لابلون) بمياهها الغزيرة

وشلالاتها التي شهدكثيرون من السياح انهُ لا مثيل لها حتى في سويسرا. والمياه هنالك تنحدر من قنن الجبال والآكام مارة بين الصخور الدهرية وعند بلوغها سفوح الجبال تجري على الحصباء كانها قطع بلورية وحولها اشجار الصنوبر والتفاح وغابات السرو والشربين وكروم الزيتون والعنب وحقول التوت والكستنه والآكام والهضاب والجبال الشاهقة مغطاة كلها بالانعم الزهرية ونهر العاصي يتمعج بينها كالافعوان بل كسيف يسل على تجاد اخضر

***

والخلاصة ان آثار انطاكية من اعظم الآثار الدالة على مدنية سوريا قديماً وقد امتاز اهلها بميلهم الى اللهو والطرب وكانوا كلفين بالعاب التياترو والميادين كغيرهم من السوريين فكانت اللاذقية ترسل الى تلك الالعاب سائقي المركبات . وصور وبيروت مشخصي الروايات . وقيصرية لاعبي الحلبة . وبعلبك المغنين . وغزة ابطالاً يقاتلون الوحوش في الميادين العمومية . وعسقلان المصارعين . وقسطابلا لاعبي « البهلوان » . وكان اهلها على حبهم الشديد للملاهي يميلون كل الميل الى العلم الالهي وعلم الهيئة . واستمرت ٦٠٠ سنة حقيقة باللقب الذي لقبها به بلينوس وهو مملكة الشرق اذ كانت محوراً لتجارة اسيا الغربية وملجأ لفنون اليونانيين وعلومهم وكان اليونان يسمونها انطاكية الجميلة وكانت فيها ابنية عمومية شائقة منها قصر الملوك الذي لا تزال آثاره ظاهرة كما وصفنا فيما تقدم . وهيكل المشتري الذي قلنا ان بعض آثاره لا تزال بادية في دفنة بجوار انطاكية حتى الآن . والتياترو والامفيتياتر ودار القياصرة وعدة حمامات واقنية للمياه وغير ذلك من المباني العمومية الكبيرة التي تدل على عظمة سكان سوريا القدماء وما بلغوهُ من العز ورفعة الشان في سالف الازمان

اما الآن فلم يبقَ الاَّ بعض الآثار والخرائب التي تذكرنا بهذا المجد الغابر . غير ان خصب الاراضي هنالك يجعلنا ان نؤمل بالمستقبل خيراً اذا اهتمت الحكومة الجديدة بالبلاد فقد تستعيد حينئذٍ مجدها السالف كلهُ او بعضهُ

الاسكندرية نقولا شكري